مدّ مدّ في مدّ مصلى مدّ المنفى المقابل ٢ عطشجيات

بقلم: المهندسة المعمارية ريم الخطيب

المنفى الذي يحمل نهرًا وشجرة زيتون في الوقت نفسه

في مخيم نهر البارد، على أطراف مدينة طرابلس شمالي لبنان، يقع مصلى صغير اسمه «مصلى الأمل». لا يشبه المصلى المعتاد. لا قبة ذهبية ولا مئذنة عالية. بناه لاجئون فلسطينيون من سوريا بعد أن فقدوا بيوتهم وأرضهم، وأرادوا مكانًا يجتمعون فيه دون أن يشعروا أنهم ضيوف على أحد. المصلى مفتوح على الجهات الأربع، وسقفه من القرميد الأحمر، وفي صحنه شجرة زيتون زرعها أحد الآباء يوم وصل إلى المخيم عام 1956.

المشروع بدأ عام 2018 بمبادرة من مجموعة شبابية من المخيم، بالتعاون مع مؤسسة محلية للتنمية. كان المطلوب بناء مصلى يتسع لـ 300 مصلٍ، مع مرافق للوضوء ومكتبة صغيرة وقاعة للأطفال. الميزانية المتاحة: 180 ألف دولار. المساحة المتاحة: قطعة أرض مستطيلة طولها 40 مترًا وعرضها 15 مترًا، كانت تستخدم سابقًا كمكب للنفايات.

تحويل المكب إلى حديقة

أول قرار صعب واجه الفريق كان ماذا يفعل بالتربة الملوثة. بدلًا من نقلها بعيدًا، اختار المهندسون تقنية المعالجة بالنباتات، حيث زُرعت نباتات محلية قادرة على امتصاص الملوثات على مدى سنتين. خلال هذه الفترة، استُخدمت الأرض كحديقة مؤقتة، وشارك فيها أكثر من 120 متطوعًا من الأهالي والطلاب.

المواد الإنشائية جُمعت بطريقة تعكس قصة المكان. الحجارة الكلسية جاءت من هدم منازل قديمة في المخيم، وأُعيد استخدامها في الجدران الخارجية. الأقواس الداخلية بُنيت من الطوب المصنوع يدويًا في ورشة صغيرة بمشاركة النساء. أما الأعمدة الخشبية فقد صُنعت من أخشاب سقف المبنى القديم الذي تهدم في حريق عام 2009.

الضوء بدل الزخرفة

في الداخل، لا توجد نوافذ كبيرة. بدلًا من ذلك، صُمّم نظام من الفتحات العلوية يسمح بدخول الضوء الطبيعي دون رؤية ما يحدث في الشارع، وهو أمر مهم للنساء اللواتي يصلين في قسم منفصل. الجدار الذي يوجه المصلين نحو القبلة يحمل زخرفة هندسية بسيطة رسمها الأطفال أنفسهم، ثم نُقلت إلى الحجر بالحفر اليدوي.

تكلفة المشروع النهائية بلغت 214 ألف دولار، أي أكثر من الميزانية الأصلية بـ 34 ألفًا. الفرق موّله متبرعون من الشتات الفلسطيني في أوروبا وأمريكا الجنوبية. وقد أثار هذا التجاوز نقاشًا داخل اللجنة المشرفة، لكن الجميع اتفق في النهاية على أن المصلى لا يمكن أن يُبنى نصف بناء.

ما بعد الافتتاح

افتُتح المصلى في 15 أيار 2021، وأقيمت فيه أول صلاة جماعة في اليوم التالي. منذ ذلك الحين، تحوّل إلى مركز صغير للأنشطة: دروس تقوية، ورشات للأطفال، ومكتبة تضم نحو 1200 كتاب تبرع بها سكان المخيم. لا يزال هناك عمل لم يُنجز، مثل تركيب ألواح شمسية وإكمال الطريق المؤدي إليه، لكن الأهالي يقولون إن المكان «صار يشبهنا» أكثر مما كان يشبه أحدًا.

مصطفى الحلبي: «الحبر الأسود لم يكن اختيارًا جماليًا بل ضرورة»

الخطّاط الذي علّم نفسه من الصفر يتحدث عن رحلته بين الورق والجدران

حاوره: سليم الدباغ

في زقاق ضيق خلف سوق الورّاقين في مدينة عين الصفصاف، يجلس رجل ستيني أمام طاولة خشبية مغطاة بالحبر، يمسك قلمًا من القصب بيد ثابتة رغم أنه بدأ الكتابة قبل أن يتعلم المشي. اسمه مصطفى الحلبي، وهو واحد من آخر الخطّاطين الذين ما زالوا يعملون بالطريقة القديمة في المدينة. لا شاشات هنا ولا برامج، فقط ورق وحبر ويد تعرف ما تفعل.

وُلد الحلبي عام 1957 لعائلة فقيرة، وترك المدرسة في الصف الخامس ليساعد والده في بيع الخضار. لم يكن يعرف حينها أن الحروف ستصبح مهنته الوحيدة. «كنت أرى الكتب في المكتبة العامة، وأحب شكل الكلمات أكثر مما أحب معناها في البداية»، يقول وهو يرفع عينيه عن العمل. «ثم قرأت المعنى، وتعلقت به إلى الأبد».

البداية بين الكتب

تعلّم الخط بالنسخ، أي بمحاولة تقليد الكتب القديمة حرفًا حرفًا. استعار من المكتبة العامة كتابًا واحدًا عن خطوط الثلث والنسخ، وبقي أسبوعين يعيد رسم صفحاته قبل أن يجرؤ على كتابة كلمة واحدة من عنده. «كنت أمزق أكثر مما أكتب في الشهر الأول»، يضحك. «كل ورقة ممزقة كانت درسًا، لكن لم أكن أعرف ذلك وقتها».

في عام 1979 افتتح دكانه الصغير، وكان يكتب الإعلانات والشهادات للزبائن. لكن الطلب الحقيقي جاء بعد عقد من الزمن، حين بدأت الأحياء القديمة تستعيد أسماءها وشوارعها، وتحتاج إلى لافتات تليق بتاريخها. «الناس تريد أن ترى يدًا بشرية، لا آلة»، يقول. «الآلة تعطي الجميع الشيء نفسه، واليد تعطي كل واحد شيئًا مختلفًا».

الحبر الأسود وحده

يستخدم الحلبي الحبر الأسود في أغلب أعماله، ويصنعه بنفسه من السخام والصمغ العربي والماء. يقول إن الألوان تشتت الانتباه عن الشكل، وإن الخط الجيد يجب أن يقرأ من بعيد قبل أن يُعجب من قريب. «حين أرى خطاطًا شابًا يضع ثلاثة ألوان في كلمة واحدة، أعرف أنه يخاف من الحرف نفسه»، يقول بابتسامة خفيفة.

ومع ذلك، فهو ليس أسيرًا للتقليد. في السنوات الأخيرة بدأ يجرب الخط العربي على الخشب والجلد والزجاج، وأنجز لوحات لمساجد ومدارس وقاعات بلدية. وقد تعاون مع مصمم شاب من المدينة على تصميم شعار لمقهى أدبي، فكان من القلائل الذين فهموا أن الشعار لا يحتاج إلى أن يكون جميلًا فقط، بل إلى أن يبقى في الذاكرة.

تلاميذ قليلون

لديه اليوم ثلاثة تلاميذ يأتون إلى الدكان مرتين في الأسبوع، من بينهم فتاة في الثامنة عشرة تدعى سلمى الورداني، تعلمت الخط في المدرسة وقررت أن تتابعه بعد التخرج. يقول الحلبي عنها إنها «تمسك القلم كما يمسك العصفور عشه، بخوف ومحبة في الوقت نفسه».

لكنه يعترف أيضًا بأن المهنة تتراجع بسرعة، وأن كثيرًا من الشبان يرون في الخط ترفًا لا مهارة. «أخشى أن يأتي يوم لا يجد فيه أحد من يقرأ خطي، لكنني أعلم أن ما أكتبه اليوم سيبقى على الجدران سنوات طويلة، وهذا يكفيني»، يقول وهو يعيد تحبير قلمه للمرة الأخيرة قبل أن يغلق الدكان.

مدّ مدّ في مدّ مصلى مدّ المنفى المقابل ٢ عطشجيات

— تتمة المقال من الصفحة ٥ «٥ · 1 ›»

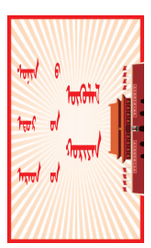

المصلى من الداخل، تظهر الأقواس الحجرية والنوافذ العلوية

الفتحات الضيقة في الجدار الشرقي، وهو ما يعني أن الضوء لا يدخل مباشرة إلى عين المصلي. يقول المعماري: «أردنا أن يشعر الداخل بالحماية، لا بالمراقبة. هذا مكان للصلاة والبكاء أحيانًا، ولا نريد أن يتحول إلى مكان للفرجة».

الأشجار التي رافقت الطريق

الشجرة القديمة في الصحن لم تُقتلع. بل أُحيطت بدائرة من الحجارة، وصار الأطفال يجلسون في ظلها بعد الصلاة. وعند المدخل الشرقي، زُرعت أشجار زيتون جديدة من أراضي المخيم نفسه، بعضها أهداه أصحابه من بساتين قريبة. يقول أحد المتطوعين في الحملة، وهو أب لثلاثة أطفال: «كنا نريد أن يكبر المصلى مع أبنائنا، وأن يعرفوا أن هذه الأرض لم تكن دائمًا لنا، لكنها صارت كذلك بالعمل».

تولت إدارة المشروع لجنة من ١٢ عضوًا، بينهم ٥ نساء، وهو ما أثار نقاشًا في البداية حول تصميم القسم المخصص للصلاة. فالمساحة المقترحة في الخرائط الأولى كانت أصغر، لكن اللجنة رفعت النسبة إلى ٤٠ في المئة من مساحة المصلى. وقالت عضوة اللجنة أم يوسف الحلبي: «لا نريد مكانًا على الورق، نريد مكانًا يُستعمل كل يوم».

ما بعد الافتتاح

بعد الافتتاح، بدأت اللجنة تنظيم دروس تقوية للأطفال في المصلى، وورشات قصيرة عن الخط العربي والزخرفة الهندسية، بالتعاون مع مدرسة الأمل الابتدائية المجاورة. وتقول المعلمة هالة السقا، التي تشرف على إحدى الورشات، إن الأطفال «يتعلمون أن الجمال لا يحتاج إلى ثمن، وأن يدًا واحدة تكفي لبناء ما تهدمه يدان».

ولا يخلو المشروع من أسئلة مفتوحة. فالمصلى يقع على أطراف المخيم، ولا يزال الطريق إليه ترابيًا في أيام المطر. كما أن الميزانية السنوية للصيانة لا تتجاوز ١٢ ألف دولار، وهو رقم يراه كثيرون غير كافٍ لمبنى بهذا الحجم. غير أن هذه التحديات، كما يقول أصحاب المشروع، جزء من القصة نفسها: «المصلى لم يُبنَ ليكون نهاية الطريق، بل ليساعد الناس على المشي فيه».